

الأدوات الفلاحية الأندلسية من خلال المصادر: ”كتب الفلاحة“ نموذجا

محمد حناوي

ما المقصود بكتب الفلاحة الأندلسية؟

إن كتب الفلاحة هي تلك المصادر المتخصصة والموضوعة في الزراعة الأندلسية منذ القرن الخامس الهجري. إنها مصادر امتاز بها تاريخ الأندلس على غيره في هذه الحقبة التاريخية.

لعل أهم هذه المصادر الفلاحية: ابن بصال⁽¹⁾ والطغفري⁽²⁾ وابن حجاج⁽³⁾ وابن العوام⁽⁴⁾ وأبو الخير الأشبيلي⁽⁵⁾، وابن ليون التجيبي⁽⁶⁾ ويمكن إضافة ابن وحشية⁽⁷⁾.

نلاحظ منذ البداية أن هذه المصادر وضعت من قبل مؤلفين مجريين في

(1) ابن بصال: كتاب الفلاحة، تحقيق حوسي م. مياس بيكروسا، محمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955.

(2) الطغفري (ابن مالك): زهر البستان ونزهة الأذهان (الآداب)، مخطوط الخزانة العامة (خ ع) رقم د 1260.

(3) ابن حجاج: كتاب في علم الفلاحة، ضمن مجموع/مخطوط خ ع د 1410.

(4) ابن العوام: كتاب الفلاحة، تحقيق بنكيري، مدريد، 1802م.

(5) أبو الخير (الأشبيلي): كتاب في الفلاحة، نشر القاضي التهامي الناصري، فاس/1357هـ.

(6) ابن ليون (التجيبي): أرجوزة في الفلاحة.

(7) ابن وحشية، الفلاحة النبطية، مخطوط خ ع، بعنوان تقييد في الفلاحة النبطية، ميكروفيلم، الرباط.

شؤون الفلاحة والزراعة ويكفي القول هنا أن ابن بصال مثلاً كان يشغل في بستان المعتمد بن عباد أحد أبرز ملوك الطوائف واطلع على بستان المأمون صاحب طليطلة قبل سقوطها في أيدي المسيحيين عام 1085م. والطغفري كان مهتماً بفلاحة أمير غرناطة المرابطي الطاهر تميم بن يعقوب بن يوسف بن تاشفين.

وحتى يكون التصور عاماً اعتمدنا أيضاً على مادة الفلاحة في المصادر التاريخية المعاصرة أو اللاحقة للفترة المدروسة وهي بدورها اهتمت بشكل مباشر أو غير مباشرة بالفلاحة وشؤونها في الأندلس. إن هذه المصادر غنية ومتنوعة وتكفي الإشارة إلى: ابن حوقل، والبكري، وابن حيان، وابن بسام، والشقطي، والمقري، والخشني، والزجالي، والحميري، والإدريسي، وابن عذاري، وابن أبي زرع، وابن سعيد، وابن صاحب الصلاة، وابن القطان، وعريب بن سعيد، ثم كتب الحسبة والنوازل، إضافة إلى ما كتبه المستشرقون المعروفون أمثال دوزي Dozy في المعاجم وبروفنسال وغيرهما.

ما المقصود بالأدوات الفلاحية؟

انصب الاهتمام بالدرجة الأولى على جانب واحد من تلك المقولة المعروفة بوسائل الانتاج الفلاحية أي الأدوات أو التقنيات المستعملة يومياً في الزراعة والانتاج الغذائي أو المعيشي وأعني بذلك الأرحاء (الأرحى)، والناعورات، والمحارث، والفؤوس، ثم الحيوانات المرتبطة بتلك الأدوات كالأبقار والخيول والبغال وغيرها، دون إغفال المنتجات الفلاحية نفسها أي القمح والشعير والزيتون والعنب... إلخ.

لماذا الاهتمام والتركيز على هذا الجانب دون غيره؟

نشير إلى أن «كتب الفلاحة» المعتمدة والمشار إليها آنفاً لا تقف عند الأدوات الفلاحية إلا بشكل عرضي، لأنها اهتمت في المقام الأول بما نسميه بالأساليب الزراعية أو الطرق المتبعة في الغراسة والزراعة. لقد فصلت هذه المصادر الحديث في أنواع الزراعات وأوقات غراستها وكيفية العناية بها، دون الوقوف عند طبيعة الأدوات المستعملة - وهي أساسية - الشيء الذي دفعنا إلى محاولة رصد وتتبع هذا

الموضوع والتساؤل حول الحجم الذي احتله في «الكتب الفلاحية» وغيرها من المصادر الأخرى. علماً بأن التقنيات الفلاحية ركن أساسي من أركان الفلاحة وربما يصعب الحديث عن فلاحية أو زراعة ما دون الحديث أولاً عن أدواتها لأنها تعد بمثابة مفتاحها.

قبل الحديث عن الأدوات الفلاحية الأندلسية نشير إلى أن التأليف في شؤون الفلاحة في الأندلس قد ازدهر منذ وقت مبكر، ولعل أحد أسباب ازدهار هذا التأليف يكمن في الدور الهام والأساسي الذي كانت تشغله الفلاحة والأرض نفسها في الأندلس - إن لم نقل أهمية الأندلس كلها في الحوض المتوسطي الغربي منذ القديم. لقد سجل المؤرخون القدامى والمحدثون هذه الأهمية ويكفي - للدلالة على ذلك - ما أورده بعض العارفين في شؤون الأندلس كابن عبدون في «الحسبة» والمقري في «الفح».

يقول الأول: «(...) فالفلاحة هي العمران ومنها العيش كله والصلاح جُله وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال وبها تملك المدائن والرجال، وبطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام...»⁽¹⁾.

ويقول الثاني: «وأهل الأندلس (...) هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها... يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للنباتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس بأسباب الفلاحة...»⁽²⁾.

كان جُلُّ أرض الأندلس صالحاً للفلاحة وملائماً لها كما يستفاد من نصوص تاريخية مختلفة، فلا غربة أن توضع مؤلفات ومصنفات من قبل الأندلسيين في هذا المجال.

(1) ليفي بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1955، ص 5.

(2) المقري التلمساني: فح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1968، ج 3، ص 151.

فما هو إذن نصيب الأدوات الفلاحية في بعض هذه المصنفات؟ أثناء حديثه عن تسوية الأرض وإعدادها للزراعة أورد ابن بصال مجموعة من الأدوات دون الوقوف عندها طويلاً إذ تكلم عن آلة معروفة بالمرجيق⁽¹⁾ تستخدم لتسوية الأرض، وفي السياق نفسه تحدث عن آلة النقش أو المناقش العُقابية الشبيهة بالمناجل التي تستعمل في الحصاد. وفي عملية الحرث يشير إلى آلة الجاروف التي يجرها البقر، وهي معروفة عند أئمة الفلاحة⁽²⁾ على حد قوله. ويضيف في باب زراعة البصل أن الأرض تدخل عليها الأزواج وتحتر وتخرق جيداً ثم تترك قليلاً ثم تستثنى ثم تقطع صفوفاً⁽³⁾.

ويشير ابن بصال إلى الحيوانات، ليس ليقف عند دورها في العملية الزراعية وإنما لبيّن أن البهائم كالخيل والبغال والحمير والغنم تتخذ زبولها إلى جانب الأزيال الصناعية⁽⁴⁾ قصد تخصيص الأرض.

وفي مجال الأشجار والعنب تحدّث عن أدوات أهمها المنشار فقال: «النشر بالمناجل الحادة التي تتخذ من الحديد القاطع الأملس⁽⁵⁾، أو السكين الذي هو على

(1) ابن بصال، كتاب الفلاحة، المصدر السابق، ص 55. يقول محققا ابن بصال أن آلة المرجيق تشبه ميزان الماء المستعمل في عملية البناء وأصله مسيحي أو أخذ عن المسيحيين الذين عاشوا تحت حكم المسلمين في إسبانيا.

(2) ابن بصال، المصدر السابق، ص 55.

(3) المصدر نفسه، ص 146. تتضح من هذه الإشارة العناية الكبرى الموجهة لكيفية إعداد الأرض للزراعة.

(4) المصدر نفسه، ص 22. يستخلص الزبل الصناعي من الأوراق والأعشاب الجافة.

(5) المصدر نفسه، يتضح من كلام ابن بصال عن الحديد الأملس القاطع أن هناك حديداً آخر أقل جودة، يجب تجنبه، ونجد هنا التمييز واضحاً في التوازل التي اهتمت بمادة الحديد في الأندلس، إنها تميز بين الحديد الجيد والحديد المتسم بالخشونة وتنصح باستعمال الجيد في صنع الآلات على اختلافها. أنظر مثلاً:

الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب. نشر وزارة الأوقاف، تحت إشراف الأستاذ حجي، الرباط، 1981، ج 6، ص ص 164 - 165.

هيئة سكين الحداد الذي يشفر به حوافر الدواب»⁽¹⁾. وتحدث في السقي عن السواقي والقوايس والسواني⁽²⁾، وكيفية جلب المياه بالدواب من الآبار.

أما ابن مالك الطغفري الغرناطي الذي دفع كتابه في الفلاحة (زهر البستان) إلى الأمير المرابطي في غرناطة، فيتضح أنه عاصر ابن بصال وتأثر بكتابه وأورد نصوصاً وإشارات منه، كما تأثر بالقدمي من اليونان والرومان والفينيقيين والهنود خاصة أنه يورد أسماءهم⁽³⁾ في ثانيا مؤلفه فيقول مثلاً: ذكر صاحب الفلاحة النبطية وصاحب الفلاحة الهندية⁽⁴⁾، وصاحب الفلاحة الرومية⁽⁵⁾ أو ذكر قسطوس أو أنطليوس أو ابن وحشية⁽⁶⁾.

وعلى غرار ابن بصال تحدث الطغفري عن مجموعة من الأدوات الزراعية كالقؤوس⁽⁷⁾ التي تستخدم في قلب الأرض والمحراث الذي يُستعمل في عمارتها⁽⁸⁾ وحرثها بالسكك المبسوطة الأطراف⁽⁹⁾ والقادوم⁽¹⁰⁾ الذي يستخدم لنقل الأشجار. وفي مكان آخر تحدث عن المنشار الذي ينشر الأشجار ويبيّن شكل بعض آلات الزبر كالمنشار الحاد الرقيق الضرس ومناجل الزبر الحادة الرقيقة الأفواه والسكين الذي يشبه ذلك الذي تُشفر به حوافر الدواب⁽¹¹⁾.

يقول الطغفري: «إنما أطلت في ذكر الآلة لتنبيه الطالب لهذا العلم (تركيب

(1) ابن بصال، المصدر السابق، ص 96.

(2) المصدر نفسه، ص 173، 176.

(3) الطغفري (ابن مالك)، زهر البستان، مصدر سابق، مخطوط ورقة 26.

(4) المصدر نفسه، ورقة 29.

(5) المصدر نفسه، ورقة 31.

(6) المصدر نفسه، ورقات 46 - 103.

(7) المصدر نفسه، ورقة 38.

(8) المصدر نفسه، ص 52.

(9) المصدر نفسه، ص 55.

(10) المصدر نفسه، ص 103 - 136.

(11) المصدر نفسه، ص 190.

الكروم وزبرها) ومنتجِل صناعته - فإن لكل أعمال الفلاحين آلةٌ توافقُه وعملاً ينفرد به...»⁽¹⁾.

وفي باب المياه والدواب ذكر الطغنري - كابن بصال - السواقي والسواني والقواديس والصهاريج ومياه الآبار⁽²⁾. كما أشار إلى خاصية زبول الدواب كالخيل والبغال والأغنام، في الزراعة. وإذا تحدث الطغنري عن الأبقار والشاء فإنه ركّز أكثر على الشروط التي يجب أن تتوفر في راعيها بحيث يجب أن يكون راعي البقر طويلاً حتى يرى الشارد منها ويكون راعي الشاء قصيراً وخفيفاً⁽³⁾.

ولم يُغفل الطغنري، على عكس ابن بصال، ذكر الحبوب خاصة القمح والشعير وأهميتها بالنسبة للمعيشة اليومية.

أما الكتب الفلاحية الأخرى سواء المنسوب لابن حجاج أو لأبي الخير الإشبيلي أو لابن العوام، فهي عموماً تنقل عن القدامى أو عن ابن بصال. ونجد أحياناً نقولاً كاملةً عن هؤلاء ومن ثمّ فهم يعيدون ذكر وتكرار أسماء الأدوات التي سبقت الإشارة إليها مع كتاب ابن بصال والطغنري، وقلما نجد إضافات تستحق الذكر، كأن تسرد مثلاً بنوع من التفصيل أنواع الحبوب كالقمح الأحمر والأسود (أشبونا)، والشعير⁽⁴⁾. أو الإشارة إلى علم البيطرة الذي يُنظر فيه إلى أمراض الدواب⁽⁵⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب أبي الخير الإشبيلي يشبه إلى حد كبير كتاب الطغنري.

وفي سياق الحديث عن كيفية مراقبة الفلاحين يسرد أبو الخير مجموعة من الأدوات، يقول: ينبغي اختيار الفلاحين من الشباب القوي... فالذين يعملون

(1) الطغنري: المصدر السابق، ص 190.

(2) المصدر نفسه، ص 44.

(3) المصدر نفسه، ص ص 48، 49.

(4) ابن حجاج (الإشبيلي)، ضمن مجموع... المصدر السابق، مخطوط 126.

(5) ابن حجاج: المصدر السابق، مخطوط، 144، 145.

بالفؤوس اجعلهم اثنين اثنين ليعمل الكسلان منهم وليستحث بعضهم بعضاً. وليكن الذي يحفر بالبليل طويلاً عريضاً، وزنه يتحامل على البليل فتغيب في الأرض»⁽¹⁾.

وبصدد الأدوات الفلاحية أو الآلات الحديدية الأخرى المستعملة في زبر الأشجار وقطع العنب يضيف أبو الخير الإشبيلي بعض التدقيقات حين يتحدث عن المناجل المصنوعة من النحاس الأحمر⁽²⁾، والمتخذة لاستئصال النبات المضر الذي إذا قطع به لا ينبت - والغربال⁽³⁾، الذي هو مزبار صغير من استنباط السرقسطين لأنه أخف في اليد وأحلى في القطع من المناجل.

وخلافاً للآخرين تحدث أبو الخير عن الرحي اليدوية التي تطحن الشعير ليصير دقيقاً⁽⁴⁾. كما أفادنا في الدواب بقوله إن البقر يستعمل في الحرث كما يستعمل في الدرس. ذلك أن الزرع محتاج مع دراسة البقر له إلى الخدمة⁽⁵⁾.

ويتبين من خلال قراءة كتب الفلاحة الأندلسية أنها تقدم افادات متنوعة في مجال الفلاحة، خاصة الأساليب الزراعية والطرق المتبعة في الغرسة وفي أنواع النبات إلى غير ذلك.

إن قيمة هذه المصادر تزداد حين نعلم أن مؤلفيها امتازوا بكونهم «خبراء» في المجال الزراعي، فلكل واحد منهم تجربة شخصية خاصة في العملية الفلاحية، فابن بصال اكتسب هذه الخبرة من خلال تنقلاته عبر البلاد المتوسطية من سوريا إلى الأندلس مروراً بصقلية، وفي الواقع الأندلسي طبق تجربته. ويضاف إليه ابن مالك الطغفري الذي اعتمد بدوره على التجارب الزراعية ويؤكد ذلك بقوله: «اختبرت

(1) أبو الخير الإشبيلي: في علم الفلاحة، المصدر السابق، ص 10. يقول المحقق بأن البليل في الغتلة في القاموس، تستعمل في تحريك الأرض وهي من الحديد.

(2) المصدر نفسه، ص 14.

(3) المصدر نفسه، ص 118.

(4) المصدر نفسه، ص ص 100 - 102.

(5) أبو الخير الإشبيلي: المصدر السابق، ص ص 98، 134.

ذلك»⁽¹⁾ و«نحن نذكر في ذلك ما جربناه فحمدنا له»⁽²⁾.

يمكن القول أن مؤلفي كتب الفلاحة - وإن نقلوا عن القدامى، كما سلف القول، قد حاولوا التجديد وكذلك تطبيق ما تعلموه في الأندلس، ولا شك أنهم بذلك أضافوا أشياء مهمة في عالم الفلاحة.

أما في مجال الأدوات الفلاحية فإن «الكتب الفلاحية» لم تقف عندها بشكل يمكننا من تكوين صورة عامة وواضحة عنها. لقد تساءل محققاً ابن بصال محققاً - في هذا الإطار - عن السر وراء عدم ذكر هذا الأخير للقمح والشعير وتربية الماشية⁽³⁾. فأجاب الطغفري وأبو الخير الإشبيلي جزئياً عن هذا التساؤل بقولهما: «أضرب المؤلفون في الفلاحة عن ذكر زراعة القمح والشعير وسائر الحبوب التي هي أصل معاش الناس والبهائم وسر حياتهم لكثرة معرفة الناس بزراعتها...»⁽⁴⁾.

نعتقد - رغم ذلك - أن المتتبع بدقة لمضمون «كتب الفلاحة» عموماً يلاحظ أن مؤلفيها كتبوا بالدرجة الأولى فيما يمكن أن نسميه بـ «فلاحة السلطان»، وقد سبق القول أن أغلبهم اشتغل في بساتين الأمراء التي تخصصت في الأشجار المثمرة وأصناف الفواكه. إن هؤلاء لم يهتموا بانشغالات العالم القروي بشكل مباشر. فلا غرابة إذا انصرفوا عن الزراعات المعيشية التي تشكل الغذاء اليومي للفلاحين، ومن ثمة عدم التركيز على طبيعة الأدوات الفلاحية.

فماذا إذن عن هذه الأدوات في المصادر الأخرى؟

على عكس «كتب الفلاحة» يلاحظ الباحث أن المصادر الأندلسية الأخرى تتحدث بنوع من التفصيل، بل والدقة أحياناً، عن الأدوات الفلاحية، وذلك في

(1) الطغفري (ابن مالك): زهر البستان، المصدر السابق، ص 101.

(2) المصدر نفسه، ص 69.

(3) ابن بصال: المصدر السابق، ص 29.

(4) الطغفري (ابن مالك): المصدر السابق، مخطوط ورقة 200. أبو الخير الإشبيلي، المصدر

السابق، ص 132.

إطار ربطها بطبيعة ومميزات الأرض الأندلسية بشكل عام.

تبدأ هذه المصادر الكلام عن الأرض وتنظيم المياه وكيفية توزيعها واستعمالها ولذلك تورد مصطلح «وكالة الساقية» أو «صاحب الساقية»⁽¹⁾، أي الذي يتولى تسيير شؤون الحقول والري. كما تورد تفاصيل مختلفة في السواقي والدواليب والناعورات⁽²⁾، وأدوارها في العملية الزراعية، ويكفي في الباب العودة إلى أمثلة عن ذلك في ابن صاحب الصلاة⁽³⁾، وابن سعيد⁽⁴⁾، والزجالي⁽⁵⁾، والمقري⁽⁶⁾، وابن الحاج⁽⁷⁾.

يقول الحميري في الناعورة أثناء حديثه عن مدينة طليطلة وقنطرتها العجيبة: «...» ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون دراعاً وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ويجري على ظهرها ويدخل المدينة...»⁽⁸⁾.

(1) ابن بسام (التثري): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، دون تاريخ، القسم الثالث، المجلد الأول، ص 14.
ابن الخطيب (لسان الدين): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، القاهرة 1975، ج 3، ص 292.

Dozy (R.): supplément aux dictionnaires arabes, Beyrouth, 1968, S, 664. 665. Provençal-Lévi (E.): L'Espagne musulmane aux X siècle institutions et vie sociale, Paris, La ROSE, 1932, p. 166.

- (2) يظهر أن الدواليب والسواني والناعورات أسماء واحدة أو متشابهة.
(3) المن بالإمامة على المستضعفين: السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي النازي، بيروت، دار الأندلس، 1964، ص 192.
(4) المغرب في حلى المغرب: تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، د.ت. ج 2، ص 312.
(5) أمثال العوام في الأندلس: تحقيق محمد بنشريف، فاس 1975، القسم الأول، ص 217.
(6) نفح الطيب، المصدر السابق، المجلد 4، ص 125.
(7) نوازل الإمام أبو عبدالله محمد بن الحاج: مخطوط، الخزنة العامة بالرباط، ج 55، ص 131.
(8) الحميري: كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1975، ص 393. تحدث الحميري كذلك عن الإرجالات وهي نوع من الأعمدة الغريبة تجلب المياه إلى قصر ماردة. وهي متقنة الصنع من الحجارة، المصدر السابق، ص 519.

وتحدث ابن القطان⁽¹⁾ بدوره عن الناعورة على الوادي الأعظم بقرطبة.

وفي السياق نفسه أورد المقرئ كلاماً عن الخطارة إذ قال: «تفرغ الخطارة الماء في الرياض، والخطارة صنف من الدواليب الخفاف يستقى به أهل الأندلس من الأودية وهو كثير على وادي إشبيلية»⁽²⁾.

أما الأرحاء فالمصادر تفصل فيها وأحياناً تفيد في طبيعتها وأغراضها بل تتحدث عن كيفية إقامتها وكرائها وبيعها وأثمنتها. وتميز الحميري عن غيره بذكره الأرحاء الهوائية في مدينة طركونة وهي من تأسيس الأوائل⁽³⁾، ويضيف أنها تطحن عند هبوب الريح وتسكن بسكونها⁽⁴⁾.

ويلاحظ عموماً أن الأرحاء الأندلسية كثيرة ومنتشرة على طول الأنهار لأنها تشتغل بالمياه. يقول الحميري بأن الأرحاء على نهر غرناطة تطحن خلال المنازل⁽⁵⁾. وتحدث المقرئ عن كثرة الأرحاء على نهر قرطبة⁽⁶⁾. ولم يفت ابن عذاري أن يُحدثنا عن أرحاء أقامها المنصور بن أبي عامر بساحة مدينة الزاهرة⁽⁷⁾، وأورد السقطي إشارات عن أرحاء مالقة⁽⁸⁾.

وتنفرد كتب الحسبة والنوازل بذكر طبيعة الأرحاء وطرق الطحن فيها فابن

(1) نظم الجُمان: تحقيق محمود علي مكي، المركز الجامعي للبحث العلمي، ومعهد مولاي الحسن، د.ت.، ص 228.

(2) نفع الطيب، المصدر السابق، المجلد 3، ص 454.

(3) الروض المعطار، المصدر السابق، ص 392.

(4) المصدر نفسه، ص 392.

(5) المصدر نفسه، ص 45.

(6) نفع الطيب: المصدر السابق، المجلد 3، ص 217.

(7) البيان المغرب: في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. كولان، ليفي بروفسال، بيروت، دار الثقافة، 1980، ج 2، ص 275 - 276.

(8) السقطي (المالقي): في آداب الحسبة، تحقيق د. حسن الزين، بيروت، دار الفكر الحديث، 1987، ص 37 - 38.

عبدون مثلاً في الحسبة أورد نصاً حول الغش في الأرحاء يقول: «يجب ألا يأخذ المقاص في أرحية الماء أكثر من عشرة أرتال وإن حُمِلَ للرحى موزوناً ولا يمضي عليه صاحبه أنه يأخذه بالوزن الذي بعثه به، فإن نقصه شيء غرمه المقاص ويحكم عليه بذلك... فإن ذلك موضع سرقة...»⁽¹⁾.

أما النوازل فتقدم معلومات دقيقة عن العلاقات الاجتماعية المرتبطة بالأرحاء في الأندلس. ومن أمثلة ذلك: نازلة تتحدث عن الأضرار التي تلحق الفنادق والأرحاء إذا قل الوافدون عليها⁽²⁾. وأخرى في جواز أو عدم جواز تسليم الرحا لمن يجلس فيها مقابل الخمس مما يكتسب منها⁽³⁾. أو هل يجوز بيع الأرحاء بثمن مؤجل⁽⁴⁾، أو هل يجوز قسمة الأرحاء وغلتها بين الشركاء بالأيام⁽⁵⁾.

يظهر من هذه الأمثلة وغيرها أن هناك مشاكل مختلفة تنجم عن استخدام الأرحاء ولذلك نجد نماذج من العقود المخصصة لبيع وكراء المطاحن والأرحاء تدون فيها معلومات مدققة من شأنها تلافي إمكانية التلاعب عند استعمال الأرحاء. يورد الجزيري نصاً في هذا المعنى مرتبط بمعاملة في إنشاء رحي يقول فيه «عامل فلان فلاناً على أن ينشئ له في أرضه بموضع كذا على نهر كذا بيتاً يشتمل على الرحي طوله كذا وعرضه كذا... وارتفاعه

(1) بروفنسال، ليفي (I): ثلاث رسائل في الحسبة، المصدر السابق، ص 53.

(2) الونشريسي: المعيار... المصدر السابق، ج 7، ص 452.

(3) المصدر نفسه، ج 6، ص 461.

(4) المصدر نفسه، ج 8، ص 294.

(5) نوازل الإمام أبو عبد الله محمد بن الحاج، المصدر السابق، مخطوط، ص 131. إذا كانت المصادر الأندلسية تتحدث عن الأرحاء وكرائها وبيعها إلخ... فإن مصادر مغربية تتحدث بدورها عن الأرحاء المرابطية والموحدية. ففي فاس مثلاً يوجد على نهرها حوالي 300 رحي حسب البكري. ويضيف الإدريسي أن بفاس نهراً كبيراً يأتي من عيون صنهاجة وعليه أرحاء كثيرة داخل المدينة تطحن بلا ثمن. أنظر: البكري: «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»، طبعة دوسلان، باريس، الجزائر 1965، ص 115، الإدريسي (الشريف): «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ج 1، ص 242.

كذا، بذراع كذا، بمصغر صفته كذا، وخشب من جنس كذا أو صفة كذا أو عرض جداره كذا وسقفه كذا. ويقيم فيه مطاحن صفتها كذا. ويقيم لهذا الرحي سداً يخرج طرفه في جنبي النهر على قدر كذا... فإذا كمل ذلك وطحنت الرحي المذكورة كان لصاحب الأرض كذا وكذا، وللعامل فلان في أصلها كذا معاملة...»⁽¹⁾.

أما الحبوب التي تطحن في هذه الأرحاء فقد سبقت الإشارة إلى أهمها مع كتب الفلاحة فالمصادر تقف كثيراً عند القمح والشعير والذرة مع الإشارة إلى أنواع القمح أحياناً، كالدرمك⁽²⁾ مثلاً. أما عن باقي الأدوات الفلاحية فإن المصادر شحيحة أحياناً فيما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالمحراث والآلات الحديثة الأخرى. فلا نكاد نعثر على نصوص واضحة في المحراث ولوازمه والحيوانات أو الدواب المرتبطة به. فقد نصادف اشارات عن المحراث⁽³⁾، وسكة الحرث والمناجل لكنها اشارات لا تشفي الغليل. مع العلم أن المصادر تفضل الحديث عن المواد المعدنية المرتبطة بالفلاحة بالأندلس كالحديد والنحاس والرصاص. فالمقري مثلاً يقول، تصنع بالمرية آلات الحديد والنحاس⁽⁴⁾. ويضيف: ومعادن الشوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى⁽⁵⁾. ويقول ابن حوقل⁽⁶⁾ بوجود الحديد والصوف والنحاس بالأندلس، ويؤكد ذلك ابن عبدون⁽⁷⁾ والحميري⁽⁸⁾ وغيرهما. والنوازل

(1) الجزيري (أبو الحسن علي بن القاسم): المقصد المحمود في تلخيص الوثائق والعقود، مخطوط ج.ع. مجموع رقم 542، ورقة 99. يمكن رصد طبيعة المواد التي تدخل في تكوين الأرحاء من النصوص التي أوردها الجزيري.

(2) الدرملق قمع جيد، أنظر السقطي، المصدر السابق، الصفحات: 41، 44، 52، 53.

(3) ابن سعيد: المغرب... المصدر السابق، ج 2، ص 49.

(4) المقري: نفح الطيب... المصدر السابق، المجلد 1، ص 162.

(5) المصدر نفسه، م 1، ص 143.

(6) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت 1979، ص 19.

(7) رسالة في الحسبة، المصدر السابق، ص 40.

(8) الروض المعطار، المصدر السابق، ص 394.

الأندلسية بدورها لم تغفل الحديث عن الحديد الأندلسي ومميزاته⁽¹⁾.

وبخصوص الحيوانات المرتبطة بالفلاحة فالمصادر تورد معلومات كثيرة عنها كما هو الشأن في الأرحاء، بل تميز بينها أحياناً وتبين أدوارها وأهميتها. إن مصادرنا تقف كثيراً عند الخيل والبغال والبقر.

فابن حوقل الذي زار الأندلس خلال منتصف القرن الرابع تحدث بنوع من الدقة عن حيوانات الأندلس وطبيعتها، يقول:

«...» وتختص بالبغال الفره وبها يتفاخرون ولهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المذكورة وأصقاعها المشهورة من أرمينية والران وباب الأبواب وتفليس وشروان لأنها تَبْدُن وتَصنع وتُنَحَب... ويُجلب إليهم منها شيء كثير من جزيرة ميرقة وهي لعبد الرحمن بن محمد فيها المسلمون منقطعة... رأيت منها غير بغل يبيع بخمسائة دينار وإليها يرغب مُلوكهم بمراكبهم وإياها يستوطنون ويؤثرون فيما يركبون. فأما ما يبلغ منها المائة والمائتي دينار فأكثر من أن تُحصى، وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط، بل جمعت مع ذلك عِظم الخَلْق وحُسن الشية إلى اختلاف الألوان... والصحة على مرّ الأيام مع الصبر على الكد والعسف»⁽²⁾.

وفي السياق نفسه تحدث المقرّي عن البغال مؤكداً الأئمة التي أوردها ابن حوقل ليقول إنها تُجلب من قرطبة وتباع واحد منها بخمسمائة دينار من حسننها وعُلُوها الزائد⁽³⁾.

ويلاحظ الدارس أيضاً أن كتب الحسبة والنوازل، كما هو الأمر بالنسبة للأرحاء، أوردت نصوصاً مهمة عن الكيفية التي تستخدم بها البغال والخيول في الأندلس خاصة في مجال البيع والكرء والنقل والحرب. فالسقطي⁽⁴⁾ مثلاً يشير

(1) الوئشريسي، المعيار...، المصدر السابق، ج 6، ص 164 - 165.

(2) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 109 - 110.

(3) المقرّي، النفع...، المصدر السابق، م 1، ص 520.

(4) في آداب الحسبة...، المصدر السابق، ص 41.

إلى استعمال البغال في التنقل وحمل الأثقال. وتحدث ابن الحاج⁽¹⁾ عن إثبات البيع في الدواب كالبغال. وأورد الجزيري⁽²⁾ كلاماً في عقود كراء الدواب لمدة معينة. وفي السياق نفسه تحدث الونشريسي عن نازلة تهم كراء دابة كل يوم بدرهم واحد⁽³⁾، وأخرى حول إمكانية إعطاء الدابة لمن ينقل بها بالنصف⁽⁴⁾.

من خلال معلومات المصادر يمكن القول أن البغال تُستعمل عادةً في السفر والتنقل وحمل الأثقال. أما الخيل فتستعمل في الجهاد والحروب⁽⁵⁾، ونشير هنا إلى أن الخيل ينتج ويُربّى في الأندلس⁽⁶⁾ المجاورة للعالم المسيحي. أما البقر والأثوار فتستعمل في الحرث والأعمال الزراعية، وربما كانت الأندلس تتاجر في بعض هذه الحيوانات خاصة مع الغرب. يقول الإدريسي في هذا الصدد: «...» ومرسى فضالة تردّه المراكب من الأندلس فتحمل منها طعاماً وحنطة وشعيراً وفولاً، وتحمل منها الغنم والمعز والبقر...»⁽⁷⁾.

(1) نوازل الإمام ابن الحاج...، المصدر السابق، مخطوط، ص 193.

(2) المقصد المحمود، المصدر السابق، مخطوط، ص 94.

(3) المعيار المغرب...، المصدر السابق، ج 3، ص 351.

(4) المصدر نفسه...، ج 8، ص 294.

(5) أنظر أمثلة عن ذلك في: ابن عذارى: البيان المغرب، المصدر السابق، ص 235؛

الحميري: الروض المعطار، المصدر السابق، ص 395؛ ابن بسام: الذخيرة، المصدر

السابق، القسم 3، م 1، ص 16؛ المقرئ: النفح، المصدر السابق، م 1، ص 384؛

ابن سعيد: المغرب، المصدر السابق، ج 2، ص 299. وأورد الونشريسي نوازل في

الموضوع مثلاً (لا ينبغي بيع فرس لمن يُمكنه من المحارب)؛ المعيار، المصدر السابق،

ج 6، ص 182، أو (تحجيس فرس للجهاد)، المصدر نفسه، ج 7، ص 58، أو شراء ثور

للحرث، المصدر نفسه، ج 6، ص 269.

(6) أنظر التفاصيل في: تقويم قرطبة لعريب بن سعيد، إذ يقول في شهر مارس يبدأ نتاج الخيل

في المدائن إلى نصف أبريل، ويضيف: في يونيو تعزل فحول الخيل عن الرّمك وتبقى

منفردة بعد تمام غلوقها عن الفحول إلى وقت وضعها...

Dozy (R.); Le Calendrier de Cordovd de l'an 961 Leiden. E. J. Brill, 1961, pp. 57-97.

(7) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص 240.

ويضيف: «...» بوهراڻ بساتين وجنات... والبقر والغنم بها رخيصة ومراكب الأندلس إليها مختلفة⁽¹⁾.

إنطلاقاً مما سبق يمكن القول إن الأندلس ربما أفادت المغرب وتبادلت معه التجربة في مجال التقنيات والمواد الفلاحية بشكل عام. ولا شك أنها أفادت أيضاً أوروبا. ويتضح ذلك إذا علمنا أن كتاب ابن بصال قد ترجم إلى اللغة الإسبانية خلال القرن الثالث عشر وانتشرت أفكاره في مناطق متعددة.

خاتمة

إن «كتب الفلاحة» كما سبق القول، وُضعت جُلّها خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد. وقد فَصّلت الحديث في الأساليب الزراعية والطرق المتبعة في الغراسة وأوقافها والمناخ الصالح لها. فإن لم تفصل في ذكر الأدوات الفلاحية وطبيعتها إلا عَرَضاً، فإنها كشفت بالمقابل عن التراث الفلاحي القديم الإغريقي والروماني والهندي، واعتمدت عليه محاولة تطبيق بعض جوانبه في الواقع الأندلسي الجديد. ولقد نجحت - فيما نعتقد - إلى حد كبير اعتماداً على التجربة في الإتيان بالجديد في الزراعة الأندلسية.

لكن هل يمكن الحديث عن الجديد في الأدوات الفلاحية الأندلسية وكيف يتأتى ملاحظة هذا الجديد؟ أو بعبارة أخرى ما هي التطورات الأساسية التي أدخلت في الأدوات الزراعية الأندلسية خلال الوسيط؟

هل يمكن الارتكاز على رأي ليفي بروفنسال⁽²⁾ القائل بأن الأدوات الفلاحية في الأندلس لم يطرأ عليها تغيير واضح منذ العصر الفيزيقيوطي الذي طورها بشكل نسبي على حد تعبيره؟

لمحاولة الإجابة عن هذه التساؤلات يجب، في اعتقادنا، البدء بالقول بأن الأدوات الفلاحية أو التقنية الإنتاجية عموماً تخضع لطبيعة الحياة الاقتصادية

(1) المصدر نفسه، ص 253.

(2) Proviñçal, levi-(E.); L'Espagne musulmane... op.cit., p. 164.

والاجتماعية بشكل عام. من هنا يمكن الحديث عن الأدوات الفلاحية الأندلسية وطبيعتها انطلاقاً من ثلاث مراحل على الأقل: مرحلة الإمارة، مرحلة الخلافة، ثم مرحلة الطوائف والمرابطين. في المرحلة الأولى يمكن القول بوجود أدوات فلاحية مختلفة ربما تعود إلى ما قبل العصر الفيزيقيوطي نفسه، وهي، كما قال الحميري⁽¹⁾، من صنع الأوائل. لكنها لم تتطور بشكل ملحوظ نظراً للظروف العامة التي عاشتها الأندلس آنذاك، أي الصراعات العسكرية المختلفة التي أثّرت بشكل سلبي على الظروف الاقتصادية عامة وعلى الفلاحة وأدواتها خاصة⁽²⁾.

أما خلال المرحلة الثانية، أي عصر الخلافة، فيمكن للباحث أن يلاحظ الاستقرار ثم التطور الذي صاحبه في مختلف المجالات بما في ذلك الأدوات الفلاحية⁽³⁾.

تتفق المصادر الأندلسية على اختلافها وتنوعها أن عصر الخلافة عرف ابتكارات متنوعة في ميادين مختلفة، خاصة الفلاحي الذي شهد تطوراً في إعداد الأرض وسقيها... إلخ.

فيمكن القول أن التطورات الأساسية في الأدوات الفلاحية تحققت خلال عصر الخلافة، أي خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

إنطلاقاً من هذه الملاحظة يُناقش وربما يُتجاوز رأي ليفي بروفنسال الذي لم يُسجل التطور الذي لحق الأدوات الفلاحية في هذه الحقبة التاريخية الهامة في الأندلس.

بعد سقوط الخلافة واستفحال أمور الطائفية من جديد يلاحظ تراجع أو على الأقل نوع من السكون والجمود في الأدوات الإنتاجية بصفة عامة.

(1) أنظر ما قاله الحميري في الأدوات الفلاحية سابقاً.

(2) إبراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة، الرباط، دار عكاظ، 1992.

(3) أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة، الرباط، دار عكاظ، 1988.

لعل العودة إلى الصراعات العسكرية والتناحرات الطائفية من شأنه أن لا يُساعد على التطور من جديد. إن أغلب المصادر الأندلسية تبين بوضوح الحالة السيئة التي عرفت بها البادية الأندلسية والاقتصاد الأندلسي عموماً خلال الطوائف. من هذه الزاوية نخالف رأي الباحثة بولانس Lucie Bolens، القائل بالثورة الزراعية بالأندلس⁽¹⁾ خلال القرن الحادي عشر للميلاد. إن الحديث عن الثورة الفلاحية مرتبط أكثر بالقرن العاشر الميلادي (عصر الخلافة)، كما سبق القول، وإذا سلّمنا مع الباحثة بالثورة الفلاحية في الأندلس خلال القرن الحادي عشر للميلاد، فيمكن الحديث عن هذه الثورة في مجال التأليف في ميدان الفلاحة، وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض مؤلفي «كتب الفلاحة» كتبوا في «فلاحة السلطان» ووضَعوا مصنفات مفيدة بشكل عام، ولم يهتموا بالفلاحة المعيشية بشكل مباشر.

إذا سلّمنا أخيراً بحدوث ثورة في الأدوات الفلاحية خلال القرن العاشر الميلادي فإن الأندلس قد سبقت أوروبا الفيودالية في هذا المجال. إذ إن هذه الأخيرة لم يُعمَّم فيها التطور التقني إلا خلال القرن الحادي عشر الميلادي.

Bolens (L.); La Révolution agricole andalouse du XI^e siècle. dans **Studia Islamica**, XLVII, (1) Paris - Maisonneuve - La Rose, 1978, pp. 120-141.

